النقد الوجودي عند سارتر

الباحثة: أسماء بن عاشور

قسم الآداب واللغة العربية

جامعة الإخوة منتوري – قسنطينة

ملخص

تقوم الفلسفة الوجودية على البحث في مسألة الوجود الإنساني، وعلاقة الإنسان بالوجود الخارجي، وموقفه من هذا الوجود، وقد اتفق جميع رواد هذا المذهب في التركيز على مقولات الحرية والاختيار والموقف والمسؤولية، وقد قعّد لهذه المقولات جان بول سارتر في كتابه (الوجودية نزعة إنسانية) وربطها بالأدب في مؤلّفه الهام (ما الأدب؟)

تطرق سارتر في هذا الكتاب إلى معنى الكتابة ولماذا نكتب؟ ولمن نكتب؟، وهي أسئلة جوهرية تفضي إلى تحديد موقف الكاتب من عصره، والتركيز على دور القارئ في إنجاح عملية الكتابة، وقد وُجهت العديد من الانتقادات إلى سارتر على الرغم من محاولته وضع صورة متكاملة للأدب.

Résume

On pense que l'existentialisme est un courant philosophique pure, comme c'est une mode d'approcher les textes.

Cela est surtout mentionné dans le livre de J.P Sartre (Qu'est-ce- que la littérature ?) qui est parmi les plus connus dans le domaine, Sartre reconnait que l'importance de la littérature repose dans ses valeurs, sociale, esthétique et culturelle. Et pour bien définir ce concept Sartre s'est posé trois questions : (Qu'est-ce que l'écriture ? pourquoi écrit-on ? qui on s'adresse ?

Sartre considère la littérature comme un milieu vitale permettant la continuité mais à condition qu'il y a toujours un lecteur.

La littérature est influencée par plusieurs courants, mais la prose est un domaine d'engagement mais la poésie regorge de peines et d'affections.

Pour tout cela Sartre a été la cible de plusieurs critiques car pour lui l'écriture est engagement mais aussi un avis.

يغض بعض الباحثين النظر عن الجهود النقدية التي طرحها الوجوديون في العصر الحديث لاسيما لدى الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر Jean Paul

Sartre (1905-1980) الذي كان له فضل كبير في إنزال الفلسفة من علياء الكتب لتصبح أسلوبا جديدا في الأدب والحياة، من خلال فلسفته التي لاقت مساندة العديد من الأدباء والمثقفين الفرنسيين مثل سيمون دي بوفوار Simon De Beauvoir (1908-1986) وألبير كامي Camus Albert (1913-1960).

خرج جان بول سارتر في وسط القرن العشرين إلى العالم بمقولة زعزعت أركان الفلسفات السّابقة، وشكّكت فيما انتهت إليه من أحكام متعلّقة بأصل الوجود الإنساني، وهي مقولة "أسبقية الوجود على الماهية l'essence -l'existence précède" التي تفضي إلى أن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي تواجد قبل أن تتشكل ماهيته؛ أي أنه يوجد ثم يبدأ في اكتشاف ذاته والتّعرف عليها من خلال احتكاكه بغيره وبالعالم الخارجي، وعبر هذا الاحتكاك يصدر الإنسان أفعالا حرّة ومسؤولة تحدّد ماهيته وصفاته وتميّزه عن غيره (1) ، وهذه الفكرة منبثقة في الأساس من صميم الفلسفة الوجودية الملحدة.

يعاني الإنسان أثناء تحقيق وجوده الذاتي من حتمية الاصطدام مع الذّوات الأخرى ومع العالم الخارجي المليء بالمآسي والعبث واللامعقول، الأمر الذي يخلق عنده حالة من التّمزق والقلق والضياع، تفضي به إلى العيش في دوّامة من التّناقضات والاضطرابات. انعكست هذه الحالات بصدق وعمق مكثّف في أعمال الوجوديين الأدبية، الذين حاولوا من خلالها خلق صور حيّة وحقيقة لهذا الصّراع، وهذا ما نعثر عليه بكثير من التدقيق في مقالة سارتر المطوّلة والشهيرة

الموسومة بـ (الوجودية مذهب إنساني L'existentialisme est un Humanisme) 1946، وفي مؤلفه الضّخم (مواقف Situations) (1947-1974) ولاسيما في جزئه (ما الأدب؟ Qu'est-ce que la littérature ?) 1948 الذي بلوّر فيه مفهومه للأدب الملتزم أو أدب المواقف.*

وطدّ سارتر عبر هذا المنجز النّقدي صلة الأدب بالمجتمع، هاته الصّلة التي رسخها الماركسيون من قبل في كتاباتهم، فكان تأثره بهم تأثر إبداع وبعث لوجهة نقدية جديدة، مكّنته من إنتاج عدّة دراسات تقوم في معظمها على تحليل الأدب انطلاقا من المواضيع التي يطرحها الكاتب، وموقفه الصّريح والمعلن من هذه المواضيع، التي يراعي فيها العوامل النّفسية التي تشكّل جوهر الإنسان، وقد عُرف هذا التّوجه عنده بالنّقد الوجوديّ النفسيّ (2) الذي نجده في بحوثه حول: (بودلير Baudelaire) 1947، (معتوه العائلة L'Idiot de la famille) 1972، كما عبّر عن جوهر تحليله النفسي الفلسفي في الفصل الأخير من كتابه (الوجود والعدم L'être et le néant) 1943 من خلال تحليله لشخصية فلوبير Flaubert (1821-1880) (3) وكذلك في كتابه (التّخيل L'imagination) 1936.

تنطلق دراستنا إذن من تحليل رؤى سارتر النّقدية حول الأدب بصفة عامّة، ومعرفة الأسس النّقدية الوجودية التي رسخها في كتابه (ما الأدب؟)، كما تجلو قيمة الإنسان في كتابه (الوجودية مذهب إنساني)، يتمّ هذا من خلال الإجابة عن الأسئلة الآتية: ما هي الظروف التي مهّدت لظهور الوجودية أدبا

ونقدا في القرن العشرين تحديدا؟ وكيف فسّر جان بول سارتر طبيعة الوجود الإنساني، ثمّ كيف حدّد علاقة الفرد بالآخر؟ وما هي علامات وخصائص النّقد الوجودي التي حاول جان بول سارتر إرساءها على السّاحة الأدبية؟ وبماذا يُفسر هذا التواجد المستمر حتى بعد رحيله؟ لماذا نلجأ إلى آرائه كلما تعلّق الأمر بالإنسان وبصراعه مع الآخر أو مع المجتمع؟

لماذا الوجودية؟

مرّت الحياة الفرنسية في القرن العشرين بظروف تاريخية استثنائية، تركت بصمتها على تاريخ فرنسا وتاريخ أوروبا بصفة عامة، أصيب الفرد من جرّائها بإحباط رهيب في كنف حضارة طالما انتظر منها تحقيق الحرّيات والمساواة بين النّاس وإعلاء صفات الخير والجمال، ومع مرور الوقت وتسارع الأحداث اتسعت دائرة هذا الإخفاق بشكل لافت، فانكبّ معظم الأدباء على تناوله كل حسب وجهة نظره، وتنوّعت المواقف وتعدّدت الآراء، لكن الإخفاق والإحباط، والخوف والقلق، والعقم واللاجدوى والضّياع، تعاضدت جميعها لتشكّل أساس أزمة الإنسان المعاصر وعقدة حياته.

تعود جذور هذه الأزمة إلى الحربين الكونيتين اللّتين خلّفتا أثرا عنيفا على حياة ومستقبل الإنسان الفرنسي، الذي شهد عبثية الأقدار وفوضى الحياة وشبح الموت المخيف والمقلق يحدق به، حملت هذه الظروف في ثناياها فكرة خلق أدب جديد يُعنى بالوجود الإنساني ويكون مصير الإنسان فيه وقضاياه لبنته الأولى، لهذا كان مصطلح الوجودية أو الأدب الوجودي أنسب اسم له.

التفّ حول هذا المذهب مجموعة من الأسماء المثقفة الرّافضة للقيود، والقيم العليا السّائدة والثائرة بشدة على المنحى الفلسفي المثالي والمادي الممتد من ديكارت Descartes (1596-1650) إلى هيجل Hegel (1770-1831) مُمَثّل النزعة المثالية المطلقة (Idéalisme Absolue) من منطلق أن النّظرية الوجودية "هي النّظرية التي تضفي الكرامة على الإنسان، ولا تعامله كشيء من الأشياء، وكل النّظريات المادية تعامل الإنسان كشيء من الأشياء أي أنّها تعتبره مجموع ردود أفعال معينة، لا تميّز بينها وبين مجموع الكيفيات والظّواهر التي تدخل في تركيب منضدة أو مقّعد أو حجر من الأحجار." (4)

عاب الوجوديون على الأدباء الواقعيين عجزهم وعدم مواكبتهم لبعض أحداث عصرهم وعدم فعاليتهم فيه، فسارتر مثلا أدان موقفهم أثناء الثورة الفرنسية بشدّة واعتبرهم "مسؤولين عن فترة القمع التي أعقبت الثّورة، إنّهم مسؤولون لأنّهم لم يكتبوا سطرا واحدا لمنعها. " (5) لكنّ سارتر لم ينس أنّهم كانوا من السّباقين في مجال الالتزام، لذلك يشيد بأعمال روائيين من أمثال بلزاك Balzac (1799-1850) وفلوبير، وملارميه Mallarmé (1842-1898) "الذين لم تكن الكتابة بالنّسبة لهم لها أي مبرّر أو سبب سوى تكوين صورهم الخاصّة عن المجتمع، وأوضح سارتر أن مثل هؤلاء الكتّاب كانوا (ملتزمين) حقا، لأنّ الأدب بالنّسبة لهم كان يعني كل شيء، ومن هنا كان للغتهم صدى قوي على كل مستويات الإنسان والمجتمع. " (6) وهذا ما يثبت استفادة أدباء القرن العشرين من تجارب سابقيهم الذين خاضوا في ميادين تخص

المجتمع والأفراد لم يكن يسمح للأدب بالخوض فيها من قبل، كما أثاروا قضية الالتزام أو الأدب الهادف التي استمرّت وتطوّرت مع ما كتبه الوجوديون عن أحداث عصرهم.

مرامي الوجودية

من الواضح إذن أن طريقة التّفكير والتّأليف والنّقد في فرنسا قد تغيّرت بعد الحربين فالجيل الطّالع آنذاك كان يخوض في السّياسة والمقاصد الاجتماعية ويعبر عن اشمئزازه من الفوضى المنتشرة في وسطه، باحثا عن حلول جديدة تلبّي رغباته وتحقّق وجوده، مواجها المواقف بمسئولية وحرية مكّنتاه من إدراك ما في الحياة من عبث، ومن التّعبير عن رفضه وسخطه حيالها.

انطلق الوجوديون في أدبهم من المنطلق ذاته الذي اعتمده الواقعيون في منتصف القرن التّاسع عشر؛ أي أنّهم اهتموا بمصير الفرد وعلاقته بالمجتمع وموقفه منه، غير أنّ دعاة الوجودية تمكّنوا من ترسيخ صورة جديدة عن الفلسفة، بحيث لم تعد معهم اختصاصا ووقفا على نخب، فكانوا أول من ردم الهوة التي ظلّت لوقت غير قصير تفصل الفلسفة عن الأدب وتحبس الأجناس الأدبية داخل أسوار منغلقة. (7) لا ينفذ إليها سوى ذوي الاختصاص والمنشغلين بميادين الفلسفة والأدب.

أذاع الكتاب الوجوديون لاسيما سارتر عبر نصوصهم المختلفة ومواقفهم المخالفة لما كان سائدا تقاليد اجتماعية جديدة لم تكن معهودة من قبل، وما إن انتهت الحرب العالمية الثّانية حتّى كانت شهرة سارتر قد تجاوزت الحدود

الفرنسية حتى إن أحد النّقاد كتب في جريدة (مانشستر هارديان) عدد 14 ماي 1947 مقالة ورد فيها أن فلسفة الوجودية التي "وضعها سارتر بعد الحرب العالمية الثّانية قسّمت المفكرين إلى قسمين: أولئك الذين يؤكدون اتفاقها مع الديانة المسيحية (...) والمجموعة الثّانية وقد اتّخذت من السّيد سارتر لنفسها نبيّا يعادل تأثيره على الشّبان المثقفين تأثير فولتير في القرن الثّامن عشر. " (8) لهذا صار فهم الحياة الثّقافية والسّياسية والاجتماعية في القرن العشرين في فرنسا منوط بقراءة ما ألّفه هو وباقي الوجوديين حول ذلك العصر.

روّجت الوجودية بعض التّصرفات الجديدة والطّارئة على المجتمع الفرنسي، فقد ظهر في ذلك الوقت جيل جديد من الشّباب، وصفه علماء الاجتماع بالطّيش، تمركز وجوده حول شارع سان جرمان. وكان الاعتقاد السّائد لدى الصّحافة آنذاك أن هذا الطّيش قد نتج من عدم قدرة السّلطة والمجتمع على ردع هذه الحركة الصّاعدة، التي ساندها شخصيات مثل سيمون دي بوفوار التي تعدّ من المؤسّسين الأوائل، والتي تحدّثت في مذكراتها عن تلك الأماكن التي وُسمت بالأسطورية مثل مقهى الطّبيعة، المحرّمات والغرفتين السّريتين. وقد رافقت هذه الحياة حياة فنية أخرى مليئة بالصّخب تسودها موسيقى الجاز ورقصة البيبوب وشكل آخر من الغناء، كما ارتدى الشّبان لباسا عليه علامات الإهمال لأن التّصرفات لم تعد طبيعية بل مثيرة متجاوزة كل أشكال العادات والتّقاليد المألوفة. (9)

ترك المذهب الوجودي أثرا على الحياة الاجتماعية الفرنسية، غير أنّه أثّر في الحياة السّياسية أيضا حيث تناول قضايا عديدة بطريقة لم تكن معهودة من قبل، عبّر عنها الوجوديون من خلال آرائهم ومواقفهم المنشورة في الجرائد مثل صحيفة (كفاح/ Combat) التي كُلّف ألبير كامي بإدارتها سنة **1944**، في أوجّ تمرد الفرنسيين على الألمان، وزاره في تلك الأيام العاصفة سارتر وبوفوار في المنشأة التي خصصتها المقاومة لهذه الصحيفة بالإضافة إلى صحيفتين سريتين أخريين، واللّتين ظهرتا إلى العلن بعد رحيل الألمان. (10)

اهتمّت جميع هذه الصّحف بالمقاومة وبالتّطورات والأحداث الحاصلة في فرنسا أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها، كما أصدر جان بول سارتر مجلّته الشّهيرة النّاطقة بأفكاره وأحكامه ومواقفه، وأطلق عليها اسم (الأزمنة الحديثة/ Les Temps Modernes) التي تبنّت الأفكار الجديدة التي جاء بها أنصار وتلامذة هذا الفيلسوف، والمتعلّقة أساسا بالفرد وقضاياه، فتآلفوا جميعا في (الأزمنة الحديثة) خلال عدّة سنوات، وانشقوا "في بداية الخمسينيات، فانصرف عن سارتر كامي وتبعه ميرلو بونتي" (11)، لكن المذهب الوجودي الذي تمخض نتيجة أحداث واجهت الفرد في ذلك العصر ظلّ مستمرا.

يعد كتاب (ما الأدب؟) لجان بول سارتر أهم كتاب نقدي تحدث عن الموقف الأدبي ورسالة الكاتب في القرن العشرين، رغم أن الموقف الأدبي فكرة قديمة نابعة في الأصل من ميل الإنسان واهتمامه بوظيفة الأدب الاجتماعية والأخلاقية والجمالية الموجهة لمصلحة الفرد والمجتمع والإنسانية، و يمكن العثور

على جذور هذا النوع من الأدب في أقوال كثيرة متناثرة في العقود الماضية، دونتها أقلام الحكماء والفلاسفة العظام مثل أفلاطون وأرسطو وكذلك النقاد الذين يؤمنون بوظيفة الكاتب في وسطه وعالمه بوصفه جزءا منه وفاعلا فيه تطورت هذه الفكرة ولاقت صدى كبيرا في العقول والنفوس على أيدي دعاة الماركسية وأعلام الواقعية الاشتراكية، الذين استطاعوا أن يقحموا آلام الجماعات المضطهدة وآهاتها في نصوصهم النثرية وكذا الشعرية عبر ما أسموه الأدب الهادف.

لم تتوقف هذه الرؤية عن الذيوع والاستمرار والتطور، خاصة بعدما أيقن بضرورتها جان بول سارتر وقدمها للكتاب والنقاد والقرّاء بأسلوب بسيط وأمثلة متعددة تنم عن ثقافته وضلاعته في كثير من مجالات الحياة. تقوم نظريته حول الالتزام على جملة من الأسس والأهداف التي تسعى إلى معرفة الإنسان من خلال الكشف عن كل ما هو إنساني فيه، لهذا صار معروفا أن الوجودية موقف إنساني، فرضت على نقدها أن يكون إنسانيا أيضا؛ ما دام الأدب يعبر عن عمق الوجود البشري والنّقد يثبت مدى ملاءمته لحقيقة هذا الوجود، يقول سارتر في كتابه (ما الأدب؟): "الكاتب اختار لنفسه رسالة الكشف عن سر الإنسان لكي يتحمل الناس بعد ذلك كل تبعة تنجم عمّا يتخذون من مواقف." (12) يتضح موقف سارتر الإنساني ونظرته للذات الإنسانية أكثر عندما نتمعن فيما كتبه في بحثه الموسوم بـــ (الوجودية مذهب إنساني) الذي تحدث فيه عن حالات

وجدانية مثل القلق واليأس والغثيان والإخفاق وحاول أن يبين أن مثل هذه الحالات ليست سوى مغزى فلسفيا.

يرى سارتر في هذا البحث الذي ردّ فيه على منتقديه أن وجود الإنسان يتحدد عبر أفعاله، وإذا "لم يكن للإنسان في بداية حياته صفات محددة، فذلك لأنه قد بدأ من الصفر. بدأ ولم يكن شيئا. وهو لن يكون شيئا إلا بعد ذلك، ولن يكون سوى ما قدّره لنفسه"(13) واختاره ويتم هذا الاختيار بحرية مطلقة تمنحه قدرة الوعي على أن يقرّر ذاته ويحدّدها باستمرار لهذا يؤكد الوجوديون دائما على أهمية الحرية في الحياة ويذهبون إلى أكثر من ذلك عندما يلّحون بشدة على أن الإنسان حر ومحكوم عليه بالحرية، وهو مجبر على الدفاع عنها ومحافظة الفرد الوجوديّ على حريته تقتضي منه كذلك اعترافا بحرية الآخرين ودفاعا عنها، لا إلغاءها وتجاوزها، لأن الحرية في نظر الوجوديين حالة طبيعية مُلازمة للإنسان ومشروطة في تحقيقه لوجوده.

يترتب على هذا الشعور الدائم بالحرية المطلقة، أن يكون الإنسان مسؤولا عمّا هو عليه مسؤولية كاملة وملتزما تجاه ما صنع، "وعندما نقول إن الإنسان مسؤول عن نفسه فنحن لا نعني أنه مسؤول فقط عن شخصه، ولكنه مسؤول كذلك عن كل النّاس" (14) لأنه باختياره لنفسه يكون قد اختار لجميع النّاس، واعتماده على نمط معين من أنماط الوجود هو تأكيد لقيمة ما اختار وإعلاء لشأنه، وكأنه يقول لكل الناس: اختاروا مثلما اخترت، فالإنسان لا يمكن أن يختار الشّر لنفسه وما يختاره دائما خير له، ومن ثم فهو خير لكل

النّاس، (15) وهذا ما يزيد من مسؤولية الإنسان عن قراراته وتصرفاته، ويجعله أكثر ارتباطا بالناس وفاعلا في أحداث عصره، لأنه مطالب باتخاذ مواقف حرة ومسؤولة من كل ما يحدث وعليه أيضا أن يميز بين الأمور الصحيحة والزائفة الموجودة في العالم، وهذا الموقف ذو قيمة مستقبلية لأنه يدخل في تحديد وتجديد الواقع الإنساني.

عندما يدرك المرء حقيقة هذه المسؤولية وثقلها عليه تنتابه حالة من القلق ويشعر بأنه واقع في مأزق حقيقي، لهذا كثيرا ما يقال عن المسؤولية بأنها الجانب المظلم للحرية. لأن مسؤولية الأفراد تصير أكبر مما يعتقدون فهي لا تعنيهم وحدهم بل تشمل جميع الناس "وهكذا يجد كل فرد نفسه يسائل نفسه: هل من حقي أن أتصرف بهذه الطريقة التي ستكون المثل الذي تحتذي به الإنسانية، وإذا لم يسائل الإنسان نفسه هذا السؤال فإنه يخدع قلقه ويداريه." (16) من الواضح أن القلق الذي تصفه الوجودية وتعنيه هو القلق الإيجابي الذي ينهض بالعمل وليس الذي يؤدي إلى الاستكانة والركوض.

استنادا إلى هذه المبادئ التي طرحها سارتر في كتابه (الوجودية مذهب إنساني) أكدت الوجودية عنايتها بالوجود الإنساني بوصفه كلا مترابطا يدعو المرء إلى الخروج من عزلته والاهتمام بذاته دون إعاقة الآخرين، لأنه هو الكائن الوحيد القادر على خلق تصور للحياة الإنسانية، والإنسان كما يرى ألبير كامي: "هو غاية الإنسان فإذا أراد شيئا فعليه أن يجده في هذه الحياة، وليس ثم إلا ترف واحد هو ترف العلاقات الإنسانية. فكيف لا نفهم أنه في هذا العالم

الهش المفتوح الذي لا متعة فيه، ليس إنسانيا إلا ما يتخذ معنى محرقا، الوجوه المشدودة والأُخوّات المهددة والصداقات الحيية القوية بين الرّجال، هذه هي الثّروات الحقيقية، لأنّها هي الثّروات الفانية. " (17)

الوجودية تسعى إلى تحرير الإنسان

لا يمكن لمقولات الحرية والاختيار والعمل أن تتحقق إلا في مجتمع إنسانيّ منصف لا يتّبع نظام الطّبقات ولا يعيق تمتع الإنسان بحريته، وهذا المجتمع هو غاية المفكرين الوجوديين، لكن إذا حدث العكس وصادفتنا ظروف تهدد حريتنا وتمنعنا من تحديد واختيار أفعالنا، فإن العالم يصبح في نظرنا سخيفا ومعاديا لوجودنا، يثير الاشمئزاز ويتسبب في الغربة والضياع، وفي هذه الحالة علينا كما يقول كامي ألا "نستسلم للعبث أبدا، ولا نخضع له، فليس هناك إلا فعل واحد مجد، هو الفعل الذي يربط الإنسان بالأرض والجسد- حتى في ضعفه- هو اليقين الوحيد، وعلى ذلك فإن المقاومة هي المعسكر الذي اختارته العظمة المقاومة والتضحية التي لا مستقبل لها، وليس ذلك عن شهوة للهزيمة والانكسار. بل لأن الإنسان لا يمكن أن ينتصر على الأرض، ومع ذلك فليس له إلا هذه الأرض، والانتصار النهائي هو الانتصار الذي يضمن الخلود، ولا خلود في هذا العالم، ومن هنا يستمر التوتر في العمل، هذا التوتر في التعاطف الفعّال مع الناس على الأرض. " (18)

تبرز هنا وظيفة الوجودية في تعبيرها العميق عن سخط الإنسان على العالم وشعوره بالعبث والتمزق والقلق من الموت الذي يعني العدم، وهي في تصويرها

لما يراود الإنسان من هموم تبغي الوصول إلى تفاهم أكبر بين الناس وإلى تضامن أعظم، حتى يتسنى للمرء التخلص من عجزه عن الحياة.

الأدب مجال تحرّك الإنسان الوجودي

إنّ الفكر الوجودي ليس هو الذي ابتدع هذه المشاكل لأنها مشاكل تقليدية عرفها الإنسان منذ القديم وفكر فيها في جميع العصور، وربطها بإنسانيته لأن مدلولاتها تتعلق بالمعاناة والألم وبمعنى الحياة والموت، إلى جانب قضايا أخرى منصهرة عن المجتمع وظروف العصر، وعليه فالوجودية "ليست فلسفة تأمل وسكون، لأنها تحدد الإنسان طبقا لما يفعل وهي ليست فلسفة متشائمة، لأنها تضع مصير الإنسان بين يديه، ومن ثم فهي أكثر الفلسفات تفاؤلا، وهي تدفع الإنسان للعمل، ولا تثنيه عنه، بل إنها لا ترى له أملا إلا في العمل، فالعمل هو سبب استمرار الإنسان في الحياة. " (19) والعمل الأدبي أيضا استمرار للإنسان في الحياة بل هو استمرار لوجود الكاتب بين الناس حتى بعد موته، لهذا كان اهتمام سارتر في كتابه (ما الأدب؟) منصبا على ثلاثة أسئلة جوهرية هي: ما معنى الكتابة؟ ولماذا نكتب؟ ولمن نكتب؟ وكل محور من هذه المحاور يفضي إلى الآخر عبر سلسلة مفتوحة ومترابطة ترابطا استنباطيا، وهذه النظرة المتكاملة لم تكن جاهزة في ذهن سارتر بل تبلورت جرّاء الأحداث العنيفة والكثيفة التي عرفها عصره، والتي دفعته إلى تحليلها وإبداء رأيه فيها، وعن هذا يقول: "في أول عهدي بالأدب، أنشأت كتبا لا تواجه المشكلات الاجتماعية بصورة مباشرة ثم كان احتلال ألمانيا لفرنسا، فبدأنا نفكر في وجوب العمل. " (20)

تبدو رؤية سارتر لمفهوم الالتزام ذات طبيعة مميّزة؛ إذ برهن أنّ الكاتب هو وحده المطالب بالخضوع لمبدأ الالتزام، وأخرج الشّعراء من دائرة الالتزام، مثلما طردهم أفلاطون من مدينته الفاضلة ذات يوم، كما أعفى الرّسامين والنّحاتين والموسيقيين من الالتزام بلغة صارمة، لوجود فروق بينهم وبين الأدب في الشّكل والمادة: "لا نريد للرّسم ولا للنّحت والموسيقى أن تكون ملتزمة أو بالأحرى لا نفرض على هذه الفنون أن تكون على قدم المساواة مع الأدب الملتزم. " (21)

لكن سارتر متيقن من أنّ الفنون جميعا تؤثّر فيها العوامل الاجتماعية والثّقافية نفسها وقد تتبادل فيما بينها التّأثير، لكنّ الفروق الموجودة بينها وبين الأدب في الشّكل وفي المادة هي التي أقصتها من الالتزام، فمثلا إذا رسم فنان منزلا فهو "في الواقع يقوم بعمل منزل، أي يخلق في لوحته منزلا خياليا لا علامة تدلّ على منزل. وبذلك يظلّ في المنزل الذي يخلقه الإبهام كلّه بالإضافة إلى المنازل الحقيقية. " (22) في حين "يستطيع الكاتب أن يقودك إلى ما يريد وإذا وصف لك كوخا أمكنه أن يُطلعك منه على رمز للظّلم الاجتماعي وأن يثير حميتك أمّا الرّسام فأبكم، فهو يقدّم لك كوخا فحسب؛ ولك حرية تأويله بما تشاء" (23) أمّا بالنّسبة للشّعر والنّثر فهما يتوافقان في قيامهما على أساس الكلمات لكنّهما لا يستخدمانها بالطّريقة ذاتها "حقا إنّ النّاثر يكتب، وكذلك الشّاعر. ولكن لا تشابه في عمليهما في الكتابة إلاّ في حركة اليد ورسم

الحروف. وعالما هما بعد ذلك منفصلان لا صلة بينهما وما يعتدّ به أحدهما قد لا يعتدّ به الآخر. فالنّثر في جوهره نفعي" (24) أما الشّعر فهو وجداني وانفعالي.

بعدما فرّق سارتر بين الأدب وباقي الفنون عاد وفرّق بين الشّعر والنّثر، وأكّد عدم التزام الشّعر والرّسم والموسيقى والنّحت، وأن فعل الالتزام يقع على النّثر فقط. وليست المسألة هنا انغلاقا ولا تعصبا، بقدر ما هي حصر وتخصيص اجتهد سارتر في وضعه من أجل صياغة أسس نظريته في الالتزام وتحديد أهدافها الخاصّة.

إنّ الأدب بالنّسبة لسارتر لا بدّ أن يكون ملتزما، وأن يخوض في كل الأمور بطريقة يلتمّس بها الجمال التماسا عميقا، لأنّ الأدب إذا لم يكن "كلاّ بتمامه، فإنّه أدب لا يستحق منّا عناء ساعة واحدة، هذا ما أعنيه بالالتزام. إنّ الأدب سرعان ما يجفّ إذا اقتصر على البراءة والتّغني بالأوهام، وإذا لم يتردّد صدى العبارة المكتوبة على جميع مستويات الإنسان والمجتمع، فهي عبارة خاوية لا معنى لها. إنّ أدب عصر من العصور هو ذلك العصر وقد استحال أدبا. " (25) فمسؤولية الكاتب واضحة ومحدّدة ولكنّه قبل ذلك حرّ في اختياره، وهاته هي المقولات التي ينهض عليها المذهب الوجودي (الحريّة، الاختيار، المسؤولية) وعن طريقها يتمكّن الكاتب من بعث أثره الأدبي الذي يتطابق مع ما يشغل الجماعة إلى الوجود فيصبح ملهما ومحاورا لكلّ من يقرؤه، وبهذا يحقّق أحد الدّواعي الأساسية للخلق الفنّي المتمثّلة "في حاجتنا إلى الشّعور بأنّنا ضروريون" (26) في العالم.

يستدعي خروج العمل الأدبي إلى الوجود عملية قراءة، لأنّه لا وجود لأيّ خلق فني إلّا عن طريق الآخرين ومن أجلهم، وفي هذا المقام تبرز أهمية الأسلوب الذي يملك سلطانا على وعي القارئ، ويحرّك عواطفه ويحقّق متعة فنيّة، وبهذه الطّريقة لا يشكّل الالتزام خطرا على فنّ الكتابة، كما لا يجب أن يشكّل الأسلوب خطرا على الموضوع الذي اختار الكاتب أن يلتزم به، يقول سارتر: "عندما يتحدّد الموضوع تأتي بعد ذلك طريقة الكتابة وغالبا ما يسير الأمران معا جنبا إلى جنب ولكن لا يسبق الثّاني الأوّل بحال لدى كبار الكتّاب.(27) "*

على الكاتب أيضا في عُرف سارتر ألاّ يسرف في الكتابة؛ لأنّه يكتب لأناس "عاشوا في نفس الأحداث وواجهوا أو تجنّبوا نفس المسائل، لهم في حلوقهم مذاق واحد وعليهم تبعة مشتركة بعضهم مع بعض وتجمعهم ذكريات موتى واحدة ولذا لا حاجة إلى الإطالة لأنّ ثمّ كلمات هي مفاتيح. (28) " يبقى العمل الأدبي بعد خروجه إلى الوجود مجرد اقتراح وموقف للكاتب يقدّمه للقارئ، وللقارئ حرّية الاختيار بعد تأمّل العمل واستيعابه، وكلما كان الكاتب مطّلعا على ما يحدث في عصره زاد قربا من قرّائه.

تأسّست بنية النّقد عند سارتر إذن عبر توطيد العلاقة الأزلية التي جمعت الكتابة بفعل القراءة، وفي بحثه عن ماهية الأدب يصعب علينا تحديد (معنى الكتابة) إلا إذا عرفنا سبب الكتابة أو (لماذا نكتب؟)، كما نعجز عن صياغة شكل للكتابة حتى نعرف (لمن نكتب؟)، وقد قام على هذا الثّالوث صرح

الالتزام الوجودي، وهو أهمّ المبادئ التي أفرزها هذا المذهب لهذا كثيرا ما يطلق على الأدب الوجودي أدب الالتزام أو أدب المواقف، فيه يحدّد الكاتب موقفا من أحداث عصره، ويُقدّم في كتابته تصوّره للمجتمع لأبناء هذا المجتمع، ولا بدّ له في هذه الحالة أن يلتزم بما دوّنه قلمه، ومن ثمّة تصبح الكتابة فعلا مرتبطا بالتّاريخ ومسؤولا عن منحاه.

يرجع حضور سارتر المستمرّ وانتشار مواقفه وأعماله، إلى تبنّيه هذه النّظرية، ودفاعه عنها بالكلمات قولا وكتابة، ضدّ كل من عارضها بانتقادات ساخرة أو سطحية، وقد أدرج في مستهل كتابه (ما الأدب؟) نماذج من هذه الانتقادات فقال:

"كتب شاب أحمق يقول عنّي: "إذا كنت تريد أن تلتزم، فماذا تنتظر كي تنظم للحزب الشّيوعي؟" ويقول كاتب كبير التزم في أدبه أحيانا كثيرة، ولم يلتزم كذلك في أكثر الأحيان ولكنّه نسي طابع إنتاجه: "شرّ الفنانين أكثرهم التزاما، انظر مثلا الفنانين السّوفيتين". ويشكو منّي ناقد شيخ؛ هامسا: "إنّما تريد اغتيال الأدب ففي مجلتكم يتبدّى، في وقاحة، احتقار فنون القول والكتابة." ومن ذوي العقول الدّنيا من سمّاني: الرّأس العنيد، وواضح أن هذه أقذع شتيمة لديه، ويلومني أنّي لا أهتم بالخلود... كم من حماقات!! ذلك أنّهم يقرؤون مسرعين دون أن يتدبّروا ويحكمون قبل أن يتثبّتوا. وإذن، لنبدأ من جديد. وليس في الأمر مسلاة، لا لي ولكم؛ ولكن علينا أن نسبر غور المسألة. وما دام النّقاد يدينوني باسم الأدب، دون أن يقولوا أبدأ ما يفهمونه من مدلوله،

فخير ما نجيبهم به أن نبحث فنّ الكتابة بدون مزاعم متسائلين: ما الكتابة؟ لماذا نكتب؟ ولمن؟ وحقا يبدو أنّ هذا هو ما لم يسأل قط إنسان نفسه عنه. " (29)

يبدو تقييم سارتر للعملية الأدبية نابعا من تقيّيمه للذّات الكاتبة والذّات القارئة وللإنسان ككل، ومثلما نظر سارتر إلى الإنسان بوصفه كلّا متكاملا، كذلك رأى أن عناصر الأدب الفنية والمضمونية أيضا متكاملة، وهي التي تمكّن الأدب من القيام بوظيفته الاجتماعية والإنسانية على وجه الخصوص.

الهوامش والإحالات

[1]ــ جان بول سارتر: الوجودية مذهب إنساني، تر عبد المنعم الحفني، ط1، الدّار المصرية، القاهرة، 1964، ص 14.

* ومن أشهر المواقف التي اتخذها سارتر والتزم بها هي مناهضته للاستعمار ووقوفه إلى جانب جل الثورات التي قامت ضده، مثل الثورة الفيتنامية والثورة الجزائرية التي استفادة كثيرا من هذه المساندة التي منحتها دعم جبهة ثقافية واسعة في فرنسا وفي الدول التي خصها سارتر بزياراته مثل الاتحاد السوفييتي، وإن شاب موقفه من القضية الفلسطينية غموضا وتقاعصا في بعض الأحيان.

[2]ــ اعتنق سارتر لونا خاصّا من التّحليل النّفسي أطلق عليه اسم التّحليل النّفسي الوجودي وهذا النّوع من التّحليل يرتكز على الفرض التّالي: يعتبر الإنسان وحدة متكاملة ومتجانسة، لأنّه ليس مجموعة أو تشكيلة من المشاعر المتناثرة وعلى هذا الإحساس يعدّ المرء متكاملا في تصرفاته كلها مهما كانت بسيطة أو تافهة وعليه أن يدون إلى جانب هذه التّصرفات ميوله وأهواءه في كشف واضح ثمّ يعمد إلى تفسير ذلك كلّه محاولا استجوابها واستنباطها. وبهذا النّوع من التّحليل النّفسي نلاحظ أن جان بول سارتر ينحي جانبا اللاشعور ويبحث وينقب عن الحادث النفسي الذي يعتبره نوعا من التخطيط القابل للامتداد بالنسبة للشعور، ويهدف هذا التحليل النفسي إلى تفسير معظم التصرفات بجلاء ووضوح تامين. للاطلاع ينظر: نفيسة عبد الفتاح شاش، مفهوم التحليل النفسي عند جان بول سارتر، مجلة عالم الفكر، ع 2، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، 1981، ص ص 130-131.

[3]ــ لماذا الإصرار على فلوبير؟ هذا السؤال ردده كثيرا النقاد على جان بول سارتر فأجاب بــ " إنه يمثل بالنسبة لي نقيض تصوري الخاص عن الأدب: التخلي عن الالتزام الكلي في البحث عن مثال شكلي ليس مثاليا على الإطلاق. لقد بدأ فلوبير يسحرني بالتحديد لأني رأيت فيه ومن كل وجهات النظر واحدا آخر نقيضا لي. كنت أسأل نفسي كيف يكون رجل كهذا ممكننا" أو أيضا: "لا بدّ من الاحتكاك بمن يخاصمني." للاطلاع ينظر: آني كوهن سولال، جان بول سارتر، تر جورج كتوره، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان، 2008 ص27.

[4]- جان بول سارتر: الوجودية مذهب إنساني، ص 45.

[5]- جان بول سارتر: نقلا عن: ضحى محمد عبد العزيز: الحرية والالتزام في أعمال جان بول سارتر، مجلة عالم الفكر، ص 75.

[6]- أحمد أبو زيد: جان بول سارتر، مجلة عالم الفكر، ص 8.

7- عبد السلام بنعبد العالي: حوار مع الفكر الفرنسي، ط1، دار توقبال للنشر، المغرب، 2008، ص 18.

8- عماد حاتم: مدخل إلى تاريخ الآداب الأوروبية، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس، 1979، ص 415.

9- voir : Yves Satalloni: Ecoles et courants littéraires, Armond Colin, Paris, 2009, P 157.

10- رونالد أرونسون: كامي وسارتر، تر شوقي جلال، سلسلة عالم المعرفة، ع 334، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2006، ص ص 37-38.

11- عماد حاتم: مدخل إلى تاريخ الآداب الأوروبية، ص 416.

12- جان بول سارتر: ما الأدب؟، ترجمة وتقديم وتعليق محمد غنيمي هلال، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة ص 24.

13- جان بول سارتر: الوجودية مذهب إنساني، ص 14.

14- المرجع نفسه: ص 16.

15- المرجع نفسه: ص ص 16-17.

16- المرجع نفسه: ص ص 21-22.

17- ألبير كامي: نقلا عن إدوارد الخراط: من الصمت إلى التمرد (دراسات ومحاورات في الأدب العالمي)، سلسلة كتابات نقدية، ع 25، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ص 337.

18- ألبير كامي: نقلا عن المرجع نفسه، ص ص 337-338.

19- جان بول سارتر: الوجودية مذهب إنساني، ص ص 43-44.

20- جان بول سارتر: حديث مع جان بول سارتر، ترجمة وتقديم أنور لوقا، مجلة المجلة، ع 124، دار الكاتب العربي القاهرة، 1967، ص 73.

21- جان بول سارتر: ما الأدب؟ ص 12.

22- المرجع نفسه: الصفحة نفسها.

23- المرجع نفسه: الصفحة نفسها.

24- المرجع نفسه: ص 20.

25- جان بول سارتر: حديث مع جان بول سارتر، مجلة المجلة، ص 71.

26- جان بول سارتر: ما الأدب؟ ص 45.

27- المرجع نفسه: ص 26.

* يعارض ألبير كامي سارتر في هذه الرأي، ويميل إلى رفع كفة الأسلوب ولو قليلا على حساب المضمون، لأنّ الشكل أو الأسلوب يستقي أهميته الجوهرية من أهمية المواد التي تروق للكاتب، وهي مواد موجودة في العالم الذي يعيش فيه ويتمّ هذا الاختيار بحرية مطلقة. يركز كامي على فكرة أن المسائل الجمالية لا تعني مجرد البراعة الشّكلية، بل هي التّنظيم الفني للتّجربة الخالية من أيّ نظام ممّا يستلزم العمق والذّكاء ويتطلب البراعة في الكتابة.

- ينظر جون كروكشانك، ألبير كامي وأدب التّمرد، تر جلال العشري، الوطن العربي، ص 188.

28- جان بول سارتر: ما الأدب؟ ص 73.

29- المرجع نفسه: ص ص 7-8.